روز

﴿ بقلم حضرة الكاتب الاديب حنا افندي صاوه ﴾

هناك على قمة اكمة رملية من سلسلة الاكام الممتدة بين الاسكندرية والابراهيمية وعلى مقربة من شاطىء البحر الابيض المتوسط كان شاب واقفاً يقلب انظاره في الفضاء الواسع وهو لا يبدي حراكاً كتمثال

وكان الوقت ضحى وليس في السماء من سحب سوى ما كان متجمعاً منها حول سلطانة النهار التي خلعت على الارض والمياه والمباني والاشجار ثوباً باهراً دالا على قدرة مبدعها ذي الجلال

وكان بعض المارين يرون الفتى وهو واقف كما اشرنا فترتسم على شفاههم ابتسامات الامتهان

غير انه ما كان ليعبأ بهم اذ ان فكره كان يجوب اطراف الافق معجباً ببهاء الغزالة المنبسطة حيال نورها على الماء

فبينا هو كذلك وقد سحره جلال الطبيعة وصفاء السماء اذا بالافق قد اكفهر واندفعت الزعازع طاردة امامها طبقات من السحب الكثيفة فاحتجبت الشمس وثارت اعمدة الرمل في الجو واضطرب البحر فارتفعت امواجه مزبدة ثم قصف رعد شديد عقبه برق خاطف مزق ظلمات الغيوم ثم تلاه مطر تدفق سيولا فزاد البحر اضطراباً

فابرقت اسرة الفتى سروراً ثم تحرك من مكانه ونظر حواليه ثم تمتم قائلا يا لجمال مناظر الطبيعة ويا لغرائب تقلباتها

ثم انزل قبعته - وكانت واسعة - الى حاجبيه ووضع يديه في جيبي صدرته ثم انحدر عن الاكمة ومشى متأنياً شأن من يفكر في امر

وجعل يجتاز الشارع المؤدي الى الاسكندرية حتى اذا اقترب من منزل بسيط المنظر تحدق بحديقة ازيحت احدى ستائر نوافذه ولاح وجه فتاة صبيح مورد الخدين ازرق العينين عريض الجبهة تقيها يزينه شعر ذهبي وقد اخذت تشيع الشاب بنظر دال على حزن مستول على النفس والقلب حتى توارى

وحينئذ زفرت زفرة شديدة ثم ارخت الستارة واختفت وهي تقول ان شارل لم يعد يفكر فيَّ فان صديقتي ماري حببته بنفسها فهام بها . ثم جلست في مقعد واعتمدت رأسها اللطيف بساعدها العاجي وقد سالت دمعتان كبيرتان من عينيها فسقتا ورد خديها

ووصل الشاب الى منزله وكانت ملابسه تقطر ماء فابدلها ثم دخل على والده وكان جالساً يصطلي فتلقاه قائلا اين كنت يا شارل فاجاب لقد كنت على احدى المرتفعات اراقب الطبيعة واتمتع بمرأى وميض البرق قال اما زلت ميالا الى التخيلات قال نعم يا ابي فانها بعض الامل والامل جزء من السعادة قال اهذا ظنك يا شارل قال بل اعتقادي وقد ولدت مناظر اليوم بنفسي حب السعي في طلب المجد فهز الرجل كتفيه وقال وهل غاب عنك ان المجد كدخان زائل لا يعود على صاحبه منه سوى اطراء باطل وثناء تردده الافواه قال انني لا اريد ان افهم ذلك اذ ان المجد الذي اتطلبه انما هو الذي يعلي منزلتي ويضمن مستقبلي فاحقق آمالي فابتسم الرجل وقال اما عدلت عن حب ماري بعد فعلا وجه الفتى الاحمرار ثم قال بحرارة كلا

يا ابي واني لاجلها اريد ان اضحى عظيما قال ولكنها تفوقك في الغنى وهو اكبر عثرة في سبيلك فانبعث شعاع عزم من عيني الفتى وقال وساجتاز هذه العثرة ظافراً قال وعلى ماذا عولت يا ولدي قال ان اتقن مهنتي فاحظى بالمال والفخر قال اعرف انك مولع بالتصوير وميال الى وضع الصور الطبيعية ولكنني لا ارى هنا مصوراً ماهراً يمكنك ان تقتبس منه جديداً قال كما ان البلاد محرومة من مدارس هذا الفن فساجتاز البحر والبر حتى اتقن ما تصبو اليه نفسي قال اتسافر يا شارل قال نعم والى باريس يا والدي مهد الفنون ومعين المعارف قال كما انها ام الحرية قال وساستعمل هذه الحرية متتبعاً فضائلها فاسمو قال بورك فيك ايها الولد المحبوب ولكن دعني اذكر لك ان بعض اصحابك يسخرون منك لميلك وقد وصموك بالجنون لداعي آمالك فارتسمت سورة الحدة على وجه الشاب ولكنه لم يلبث حتى عاد اليه هدوءه وقال انني لواثق بنفسي يا ابي فانا اشفق عليهم واغفر لهم فصاح الوالد جذلاً ثم قال وقد طبع على جبهة ولده قبلة حارة هنيئاً لي بك ايها الابن الكريم ولم يعد لي من سبيل كي احبط مسعاك فيمكنك ان تسافر بعد اسبوع فتناول الولد يدي والده وشكره كثيراً

* * *

نحن الآن في اليوم السابق ليوم السفر

وكانت الشمس تتوارى حيناً خلف السحب فيتوشح الفضاء بوشاح القتام ثم تبرز حيناً آخر فتكسبه بهجة ونوراً

فارتدى شارل ازهى ملابسه ثم قصد ماري بغية وداعها فابلغ انها في الحديقة مع ابن عمها يدعى فيليب فحار الفتى في امره واخذ يتساءل ايدخل

فيحظى منها بكلمة واحدة تكون بمثابة امل يعينه على تحمل الصعوبات او انه ينتظر حتى يلاقيها على انفراد ولكنه كان عاشقاً مغرماً لا قبل له بالصبر ومحباً مدنفاً لا مقدرة له على مقاومة اميال القلب فدخل الى الحديقة بقدم الجبان الخجل وكانت الريح تعبث بالرياحين فتتعطر وتتلاعب بالزهور فتنتشر روائحها في الارجاء والوقت لاحت له ماري وكانت مرتدية ثوباً ابيض جميلا تزينه منطقة زرقاء رقد رأى انها متكئة على ذراع ابن عمها وهي تحادثه وتضحك في آن واحد فداخله الحزن وحل به الارتباك فتوارى خلف شجرة ضخمة كان امامها مقعد لم تصل اليه ماري حتى جلست فيه واجلست فيليب الى جانبها وهي تقول افهمت ما ذكرت لك فاجاب نعم وانه ليدهشني عزمه على السفر قالت انك لا تعلم اي شاب هو فانه ذو عزم لا يفل وامل لا يتقوض فضحك وقال العلك علمته بشيء فعبست وقالت محتدمة يا لخفة عقلك يا فيليب اظننت انني فتحت له مجال حديث يحظى منه ببعض الامل قال او لم تقولي لي بانه يحبك فقالت وقد ضحكت وهل استنتجت من ذلك انني احببته او احبه قال كلا ولكنني عالم بان الحب غالباً ما يتبادل فاذا بي اجد انك من شواذ هذه القاعدة وقد اتصل بي ان اكثر معارفه يهزأون به ويقولون عنه انه مجنون فما قولك انت في ذلك قالت انني لا يسعني دحض اقوالهم قال اتسلمين بها اذن قالت وما يمنعني من ذلك فابتسم مرتضياً وقال والحق يقال انني لم اعاشر هذا الفتى ولذا فانني راغب في معرفته فوثب عندئذ شارل امامهما وقال وهذا هو يقدم اليك نفسه فصاحت ماري صيحة شديدة وبهت فيليب جداً

وكان الفتى هادئاً غير ان عينيه كانتا تدلان على حزن اكيد فالتفت الى

ماري وقال انني شاكر لك ما ذكرته عني يا ماري ولا اعلم ما دعاك الى عدم ذكره لي غير انه مهما كان الامر فليس لي ان اوبخك بل علي ان الوم ذاتي لانه كان يتحتم علي ان اعمل حتى اقف على افكارك وثق بانني احببتك ووضعت كل آمالي فيك وكثيراً ما كنت اهم بان ابوح لك بغرامي ولكن هو خجلي الناشيء عن شديد حبي كان يقعدني عن ذلك فيا لعذاب فؤادي الذي يخفق وجداً لذكراك ويا لحزن نفسي التي لا تشعر بالسعادة الا وقت لقائك ولكن عفواً فلا يحق لي ان اندبهما لانك اذا لم تحبيني فلانك تعتقدين بانني غير كفوء لهذا الحب ولكن تأكدي ان حاضري زاهر ومستقبلي باهر وقد سمعتك تقولين انه لا يمنعك مانع عن الاقرار بجنوني فليس علي ان اتكدر من ذلك لانني واثق بنفسي وقد كنت اتيت وعزمي مفاتحتك في حبي ولكن ابت الاتفاقات الا ان تغنيني عن ذلك فسلام اذن على الحب ووداع للماضي ولكنني لا اقول سلام على آمالي لان آمالي قوية وفؤادي يدلني على تحقيقها وانني لمفارقك من اجل ذلك

ثم التفت الى ابن عمها وقال اما انت يا سيدي فها قد عرفتني واظن انه لم يعد لك بي من حاجة فالوداع اذن يا سيدي وساعمل حتى ابدد من ذاكرتك ذكر جنوني ثم عاد فشخص الى ماري واستطرد قائلا والوداع يا ماري وانني لواثق بانك لا تحزنين على بعدي

ثم انصرف واضعاً يده على قلبه الذي جرح جرحاً خال انه لا يبرأ ابداً حتى اذا دنا من منزل فتاتنا التي سبق لنا ووصفناها وكانت مطلة في هذه المرة من نافذتها ونور الشمس يزيد بهاء وجهها بهاء ويكسب شعرها الذهبي الجميل جمالا ـ رفع انظاره اليها فوجد انها تبتسم له ابتساما وقد دعته برأسها

فلبى فهرعت الى لقائه وهي تكاد تطير بشراً ثم تناولت يديه وضغطت عليهما بشدة وهي تقول انني ظننت انك نسيتنا تماماً يا شارل حتى انك عزمت على الرحيل بدون وداعنا فارتبك الفتى وقال عفواً يا روز فاذا كنت شعرت بتقصيري في التردد اليك فلان اعمالي اكثر مما يظن وتأهبات سفري تستغرق غالب اوقاتي قالت هكذا قال لي والدي وقد قلت له انك ستغادر المدينة بدون ان نراك فلم يصدقني واكد لي مجيئك وها انت قد حققت قوله فيك قال اشكر لك فضلك يا روز واين هو الان فانا راغب في مصالحته اذ انني في شوق اليه قالت انه في الحديقة فتعال معي لننضم اليه ثم نزلا الى هذه الحديقة وكان والد روز شيخاً وقوراً فلاقى الفتى احسن لقاء ثم جلس جميعهم في مقعد ووجه الفتاة يفيض بهاء وعيناها تبعث بشعاع الحب ثم قال ابوها للفتى لقد اتصل بنا خبر عزمك على مبارحة هذه الديار فاتمنى لك اسعد اتفاق واعظم نجاح وقد كانت روز لا تنقطع عن محادثتي عنك ذاكرة انقطاعك عنا في هذه المدة الاخيرة فلم انسب هذا الانقطاع الا لدواعي اهتمامك باعداد لوازم سفرك والان فاحمد الله على مرآك واشكر لك زيارتك قال وقد قصدت منها وداعا لا بد منه ونصحاً اقر بفقري اليه وارشاداً يعينني على تحمل اعباء الغربة قال انك لست محتاجا الى شيء من كل ذلك يا ولدي فسافر اذن واتكل على الخالق فاخذت روز وردتين كانتا تزينان صدرها ثم قدمتهما الى الشاب وهي تقول نعم سافر يا شارل وانني مهدية اليك هاتين الوردتين لتذكرني متى رأيتهما فتناول الفتى الوردتين وقد لاحت على شفتيه ابتسامة الرضى ثم امسك بانامل الفتاة ليقبلها شكراً فقال له والدها بل قبل خديها يا شارل فانها تحبك فاحمر وجه الفتاة الزاهر واطرقت خجلا فاسرع

شارل واخذ يديها بين يديه ثم طبع على كل خد قبلة طاهرة وهو يقول وهذا عربون شديد ميلي اليها وشكري لها على هديتها التي ساحفظها كاثمن تذكار

ثم ودعهما وانصرف وهو يقول كيف ذهلت عن روز

* * *

نحن الان في السنة الثالثة من وجود شارل في باريس

وقد اكب على العمل حتى اتقن التصوير وبرع فيه فنال شهرة بعيدة وانعم عليه بوسام الاستحقاق

وكان قد عرض بعض صوره في معرض الفنون فنالت احسن اعجاب واقبل المثرون على ابتياع صوره غير ضانين بالمبالغ الطائلة فاصبح واسع الثروة

وحينئذ وصل اليه كتاب من والده متضمناً ما ياتي

ان شهرتك سبقتك الي يا ولدي فقد رأيت اسمك مراراً في صحافة باريس التي تصل الي مع البريد فتعال اذن فانني اشتقت كثيراً اليك وقد تتوجت باكليل الفوز فكسوتني فخراً ونلت ما صبت اليه نفسك فجعلت روز تفاخر بهواك

وكان الفتى جالساً الى منضدة فاغرورقت عيناه حنواً ثم فتح علبة في جانبه اخرج منها وردتين ذابلتين قبلهما بحرارة ثم تناول قلما وكتب الى والده انا عائد قريباً فقبل لي وجنتي روز

* * *

كانت ماري وابن عمها ووالدها مجتمعين في غرفة الاستقبال وهم يتحادثون وكان في يد الوالد لفافة يدخن بها فقال وقد ارسل دخانه من فمه

والحق يقال انني لمندهش من انقطاع شارل عنا فسألته ماري او لم تره بعد زيارته الاخيرة لنا اجاب كلا مع انني هنأته بنجاحه ورجوت منه ان يتردد الينا قالت انه لجدير باكثر من هذه الانعطافات قال اجل فانني اوده وقد اعجبت به وبتعلقه بآماله فقال فيليب كما انني شاكر له قيامه بوعده اذ انه لاشى من ذهني شكي في جنونه فقالت ماري انه فاز بجده وذاعت شهرته اثر سعيه فاذا اتى طالباً نيل يدي فانني لا اتأخر عن تقديمها اليه ابداً فابتسم والدها وقال وسا كون سعيداً متى رأيت انه اصبح شريك حياتك فتوردت وجنتاها سروراً وقالت افراض انت به يا والدي فقبض الرجل على يديها وقال بحنو اتحبينه يا ماري فاجابت وقد اطرقت حياء نعم يا ابي وقد شعرت بهذا الحب منذ رحلته الاخيرة فهم فيليب بان يتكلم ولكنه احجم اذ انه رأى خادماً داخلا وبيده رسالة

فتناولها منه والد ماري وتلاها فانتشرت سورة الحزن على وجهه ثم قدمها صامتاً الى ماري

فلم تلق نظرها عليها حتى صاحت صيحة طويلة صادرة من قلب قد كلم وكانت قد وقفت والبهت مبرقع وجهها فالقت بنفسها على مقعد خائرة

وكانت الرسالة تتضمن نبأ ينحصر فحواه في ان شارل زف الى روز

* * *

اصبحت ماري اليفة الحزن محبة للوحدة فحل بها المرض فجعل والدها ينتقل بها من مدينة الى مدينة اخرى مؤملا تعزيتها راجياً تبديد حزنها ولكن هيهات ان ينسى الفؤاد حباً انطبعت آيته عليه وهيهات ان تنسى النفس املا كان في حيز الاستطاعة ثم ضاع